الآليات الحجاجية في أسلوبي الكناية والتعريض سورة هود

أ. بختي العياشي إشراف د. معازيز بوبكر
قسم: اللغة العربية وآدابها الجامعة: ابن خلدون / تيارت

الملخّص

اهتم علماء البلاغة وعلماء الإعجاز ببيان القرآن الكريم، ومدى تحدّيه لمعارضيه، ودعا القرآن في مواطن كثيرة إلى اجتلاب العقل في بيان حقيقة الإيمان، كما تنوعت فيه أساليب الأدلة والحجج، من أجل تمكين حقائق تعليمية تشريعية في نفوس المتلقين، لذا جاءت صور البيان مراعية أحوال المخاطبين في التعبير عن شتى أغراضهم دون تمويه، أو خداع. وفي هذا المقال نروم إلى دراسة أسلوب الكناية و التعريض في سورة هود من خلال نظرية الحجاج.

الكلمات المفتاحية: الحجاج ، الإقناع، التعريض ، الكناية، المخاطَب ،الدليل.

Résumé:

Les scientifiques de l'éloquence et d' Al iidjaz ont donné une importance aux figures de style employées dans le Coran. Des styles d'argumentation diversifiés permettant la compréhension de certaines vérités éducatives et législatives aux différents lecteurs. Dans cet article, nous étudions la métonymie et«allusion » Sourate « Hud » à travers la théorie D'argumentation.

Mots-clés:

Argumentation - Persuasion – le guide – le destinataire - locuteur.

توطئة

إنّ علم البلاغة من أهم العلوم وأجلّها فهو يُظهر عظمة القرآن ويبيّن معانيه، انطوى تحته أسرار المعاني، فأعجز ذوي الألباب من المؤمنين والكفار، فوقفوا حيارى في تحدّيه، وذرفت عيونهم من التأثر به، وولّى الذين استكبروا

ليأتوا بمثله فعجزوا .قال تعالى:﴿ :﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] ﴾.

إنّ أحقّ العلوم بالتعلّم والمدارسة هو علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، "والإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك."[2]

لقد حوى هذا القول قضايا هامة نجنيها من تعلم البلاغة، فهي الكشف عن جمالية التعبير القرآني وصوره البيانية، فيقف البليغ ليرشف من بلاغته، وقوة معانيه من خلال تعاطي الأثر الساحر الذي يتركه في نفسيته، ومن هنا "نخطئ حين نعتبر البلاغة جمالية للغة، بل هي أيضا فلسفة التفكير، ثقافة المجتمع، إيديولوجية الطبقات، أسلوبية الحوار، فهي مثال العقل البشري عموما ".[3]

هندسة اللفظ ومعنى المعنى في مملكة الخطاب.

اهتم النقاد بقضية اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما، ولعل الجاحظ(**ت255هـ**) كان من السباقين في توضيح هذه المسألة، فقد كان ينظر إلى اللفظ على أنه أقرب إلى أذهان المتلقين، البعيد عن التعقيد وله وقع خاص في القلوب، "ومتى كان اللفظ كريما في نفسه متميزا من جنسه، وكان سليما من الفضول وبريئا من التعقيد حُبّب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتّحم بالعقول، وهشّت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخفّ عن الألسن وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار في ذلك مادة للعالم ورياضة للمتعلّم"[4] .

يكشف لنا هذا القول أنّ تأليف الألفاظ والمعاني في العبارة يؤدي إلى الوضوح في دلالة المعنى؛ يقول الجاحظ معلقا عن ذلك :" ومن أراد معنى كريماً فيلتمس له لفظاً كريماً فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف"[5].

إنّ الدليل الذي لزمنا به الجاحظ أنّ لا مزية للفظ عن المعنى، والعكس صحيح ،وأن المعنى يتبع اللفظ في الجودة والرداءة، بل يراهما متحدين متكاملين كوجهي الورقة الواحدة، وأحسن الكلام وأبلغ إلى النفوس بمدى تأثيره في المتلقين، "فإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع صَنَع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فُصلت الكلمة عن هذه الشريطة،

ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة، وقد قال عامر بن عبد قيس:الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان"[6].

أما الجرجاني(**474هـ**) فربط البلاغة بالمعنى واللفظ، وأنّ المعنى يتعلق بالقلب كما يتعلق بالعقل من خلال الصورة الذهنية التي يرسمها كل من المتكلم والسامع ؛ لأنّ "المعاني هي الصور الذهنية ؛ من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما، ومن حيث إنه مقول في جواب ما هو سميت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار سميت هوية"[7].

لذا تتعدد دلالة مصطلح المعنى من حيث الاستعمال، فيمكن أن يسمّى معنى ومفهوما، وماهية، وحقيقة وهوية، ومن ثمة يكون تحديد المعاني وفق ترتيب دلالتها في العقل، ويكون حسن معناها متعلقا بجارتها، لذا ربط المزية في النظم:" و ليس الغرض أن توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[8] .

لذا يُعد النظم سوى ترتيب الكلمات ما يقتضيه قواعد النحو، ولا يتحدث عن اللفظ المفرد، بل ينظر إلى التأليف الذي يقع بين المفردات؛ لأن المفردة تتأثر لما قبلها وما بعدها وهذا ما يريد الجرجاني أن يبلغنا إياه فيقول :"اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها".[9]

لقد ارتبط مصطلح (المعنى) و(معنى المعنى) بالجرجاني وتم توظيفه في معالجة بعض الظواهر البيانية، كالاستعارة والكناية والتعريض والتمثيل ،"وأن الاستدلال الذي يهتم به البلاغي إنما هو الاستدلال التي تقتضيه الملازمات بين المعاني الأولى والمعاني الثواني بحيث يتخذ معنى اللفظ دليلا على معنى آخر يمثل الغرض"[10].

إنّ تحقيق (معنى المعنى) يتطلب إعمال الفكر من خلال توظيف المعنى الأول الظاهر(الحرفي) من اللفظ للوصول إلى غرض المتكلم، وقد أجمل الجرجاني في دراسته لمعنى المعنى أنك "إذا عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول(المعنى) و(معنى المعنى)،

تعني ب(المعنى) المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة و(معنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك المعنى إلى معنى آخر."[11]

هناك فروق جوهرية بين دلالة المعنى الذي يستخرج من الشكل الخارجي للفظ ؛أي المعنى السطحي المباشر ودلالة معنى المعنى، التي يتوصل إليها السامع بناء على التفكير العميق وهذا ما يفتح لنا بابا إلى التأويل .

وقد أردف الجرجاني هذه الأمثلة لتوضيح كيفية انتقال المعنى الأول من جسم اللفظ ليتوصل إلى الغرض المقصود بذكر معنى آخر إذ يقول : "أو لا ترى أنك إذا قلت ((كثير الرماد)) أو قلت ((طويل النجاد)) أو قلت ((نؤوم الضحى)) فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني بمجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى ،على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك"[12].

أما ما يميز المشروع البلاغي عند السكاكي(**626هـ**) تخصيصه لفصل كامل للاستدلال، ويرى أن الخطابات ماهي إلا استدلالات بلاغية حجاجية حيث "اعتبر الاستدلال في البلاغة العربية حجة ودلالة عقلية بيانية"[13]. وأنّ بلاغة الكلام مبنية على علم الاستدلال؛ لأنها "تخضع للعقل وقوانين المنطق، والذي يراعي فيه صحة الفكرة وسلامتها وتسلسلها بحيث يؤدي التعبير عنها ماهو مطلوب من إبراز تلك الصحة العقلية في تعبير مماثل، يسلم إلى نتيجة منطقية تلزم القارئ والسامع؛ لأنها افتعلت عقله وفكره وسيؤدي في الاقتناع بما تفضي إليه المقدمات من النتائج.."[14] بالإضافة أنه لا يستخدم القوى الحجاجية المعتمدة على عقله فحسب ، بل يتعدى تأثيره إلى النفس ومدى استجابتها للخطاب، فكلما كانت الصورة المجازية أقوى وأبلغ كان الالتحام ظاهرا بين المتكلم والمتلقي.

لقد أخضع السكاكي الاستدلال إلى بناء وجوه البيان وعلم المعاني ؛لأنه "ليس عملية عقلية استنباطية محضة، بل عملية خطابية،...لذلك قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة، وبشكل أعم عن دائرة المجاز"[15].

لقد حصر البيان باعتبار الملازمات بين المعاني؛ لأن" إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي:الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه"[16]. وبذلك نزع عن البيان "شرنقة الزخرف والتفنن ليربطه بالبعد الإقناعي[17].

معالم مصطلح البلاغة الجديدة عند منظري الغرب:

ارتبط مفهوم الحجاج في الدراسات الكلاسيكية بفن الخطابة للمعلّم الأول أرسطو، وتناوله من زاويتين متقابلتين "ينظر إليه من الزاوية البلاغية فيربطه بالجوانب المتعلقة بالإقناع ؛ ويتناوله من الزاوية الجدلية، فيعتبره عملية تفكير تتم في بنية حوارية ، وتنطلق من مقدمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة بالمحاورة"[18] .

ويستخلص من هذا أن الجانب الأول يُعنى بالأسلوب الجميل البليغ المؤدي إلى الإقناع ؛ لأنه "عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطَب لفعل أو ترك بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما (أو يعتبره المخاطب) شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو الترك".[19]

أما الجانب الثاني، أنّ الحجاج لا يخرج عن دائرة الجدل ولا ينفصل عنه؛ لأنه يشتغل على "الدفاع عن أطروحة أو نتيجة ، يقابله دفاع عن أطروحات أو نتائج أخرى ؛ ولأن الدخول في الجدل لا يعني عدم الاتفاق فقط، بل يعني أيضا أن المجادل يملك حججا مضادة .

تجرنا فكرة اهتمام أرسطو بعناصر العملية التواصلية المكونة من "الأيتوس والباتوس" ما هو إلا دليل على قدم النظرية التواصلية التي ترتكز على الوظيفة الحجاجية للخطاب، لهذا أضحت فكرة الإقناع في عقول الناس، وتناقلتها الثقافات عبر العصور، وأصبحت ملجأ لفك الخصومات والنزاعات بين الناس.

جاءت فكرة توسيع هذه النظرية على يد لبيرلمان (Chaim Perelman) وتيتيكاه (lucie olbrechts _ Tyteca) في كتاب (مصنف في الحجاج) بنظرة جديدة توحي بميلاد جديد للبلاغة، بعدما كانت تُعنى بالأسلوب بالتزويق وتزيين العبارة ، لتحقق في الفكر الجديد قواعد وأسس وتقنيات من شأنها أن "تُؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[20].

تُبنى هذه النظرية على إقناع الآخرين بعدما كانت تنميقا وتزيينا زائدا، فهي الآن " خاصية لغوية تشكل دافعية حقيقية للفعل الإنساني بمستوياته السياسية، والاجتماعية ،الأخلاقية ،الدينية...،حيث تظهر الحقيقة من خلالها محض اتفاق أساسه اجتماع القناعات على رأي ما تُعاد صياغته نظريا في شكل قوانين، وأنظمة قواعد، ومعايير"[21].

لقد أضحى مصطلح الحجاج متداولا في الدراسات اللسانية والتداولية لما يحمله من أدلة

مقنعة، يدلي بها إلى متلقيه بغرض الاستمالة . لهذا عُدّ "الحِجاج في رحاب هذا التحوّل مطلباً أساسياً في كلِّ عمليّة اتّصالية تستدعي الإفهام والإقناع، وانطلاقاً من الدور البالغ الذي أصبحت نظريّة الحِجاج تلعبه، أو من المفروض أن تلعبه، فـ(بيريلمان Chaïm Perelman) يعتبر أنّ البلاغة مطابقة لنظريّة الحِجاج؛ فقد حصر الأولى في الأخيرة"[22].

يفهم من هذا القول أنّ الحجاج مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية التي يتوجه فيها الباث أو المتكلم إلى متلق معين، بُغية إقناعه والتأثير فيه ،من أجل تغيير سلوك أو تعديل حكم .والحجة قوة البيّنة التي تعمل على تغيير ذهنية الغير والتأثير فيه فتؤدي وظيفتها الحجاجية حسب سياق الخطاب، وبكونها صريحة أومضمرة ؛ لأن"الحجج الكامنة في الخطاب ثلاثة أضرب؛ ضرب منها يقوم في خلق الخطيب ،والضرب الآخر في أهواء المستمع، بينما يقوم الضرب الأخير في الخطاب نفسه، عندما يكون استدلاليا،أو يبدو كذلك"[23] .

إنّ الوظيفة التي يشتغل عليها الحجاج هي البحث عن دلالات إقناعية تجعل العقول "تذعن لما يطرح لها أو يزيد من درجة الإذعان، فأنجح الحجاج ما وُفّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب، أو هو ما وُفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة."[24]

أما مميزاته فيقسمها إلى خمسة اتجاهات رئيسية يتقيد بها صاحب الحجة" أن يتوجه المتكلم بخطابه نحو مستمع ، بلغة طبيعية ، وأن تكون مسلماته لا تعدو كونها احتمالية، كما لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية، و أن تكون نتائجه غير ملزمة احتمالية غير حتمية"[25]. كما يُعد الجانب النفسي مهما في بناء العملية التواصلية، "فإذا كان المتكلم مشهورا بالأخلاق المحمودة وحبه للحق وحرصه على العدل في الحكم وتمكُّنه من القضايا التي يتحدث فيها، مما يجمعه المصطلح اليوناني (Ethos) كان حظ الخطاب من الإقناع أوفر وتأثيره في متقبله أبعد غورا".[26]

أما نظرية المساءلة عند (ميشال مايير M.Meyer) فانطلقت "من فلسفة السؤال والجواب التي تُعرف (بنظرية المساءلة) (Questionnement)، وأنّ الخطاب الحجاجي عنده ما هو إلا مجموعة من التساؤلات تستوجب إجابات مقنعة، لذا يرى الحجاج "محايثا لاستعمال الكلام؛ لأنّ الكلام يتضمّن بالقوّة سؤالا يستمدّ منه دلالته؛ والحجاج لا يتّصل بضرب من الخطابات مخصوص، بل يشمل كلّ ضروب الخطاب الشفوي والمكتوب الأدبي وغيره"[27]، فهو يحمل صورا بلاغية تستوجب دليلا يستخلص من خلال التفاعل بين المتخاطبين ليفسح المجال لإثارة السؤال

والوصول إلى الإقناع ؛ لأن "الحجة عنده إلا جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر بنتيجة المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام وبوحي منه"[28].

لقد وظّف (مايير) مفهومين في بناء العملية الحجاجية هما:المصرح به الذي يستخرج من ظاهر السؤال ،أما المفهوم الضمني فيقصد به تلك الإمكانات المختلفة التي تستخلص للإجابة عن السؤال الواحد. ويبرر اهتمامه بالصور البلاغية لما لها من تأثير مباشر على السامع ، تحرك مشاعره وعواطفه واعتبرها قادحة للخيال ومعبرة عن الأهواء الإنسانية.

الأسس المنطقية للتحليل الحجاجي عند تولمين(Stephen Toulimin).

أعطى الباحث الأمريكي (ستيفان تولمين) تصورا جديدا لبعض القضايا، التي أغفل عنها المنطق الصوري أو الرياضي في كتابه (les usage de l'argumentation)المنشور عام 1958م،حيث يرى أن الحجاج لا يمكن أن يبتعد عن سمة العقلانية؛ لأن "الحجاج لا يمكن أن يوضع خارج دائرة المنطق "[29].

لقد أثار قضية جوهرية هامة أغفل عنها المنطق الصوري أو الرياضي والتي أعطت بعدا فكريا جديدا وهي" علاقة مبادئ المنطق إلى تقويم الحجج على الواقع؛ لأنه صفة القائل أو المقول الحجاجي، فالقول بالضرورة مطابقة الاستدلال في تنفيذه للقواعد التي تضمن مبادئ المنطق يقود إلى مفارقات؛ إذ غالبا ما نصل إلى نتائج في لحظة، دون أن نمر بأي مرحلة من المراحل الأساسية للتنفيذ المحكوم بقواعد الاستدلال، بل إنه نظام استعدادي تبريري، يهتم بالحجج التي تقدم، من أجل شرعنة مقبولية النتائج، لكنها قابلة للتبرير.وهذا الأمر يرفضه المنطق الرياضي المبني على علاقات صورية ،وأن معرفة قوة الحجة تستدعي معرفة سلامة تكوينها... ويتخذ من نظرية القانون نموذجا لهذا المنطق[30].

أما الحجج عنده فتتنوع بتنوع الغايات لأنها " لا تقوم على المحتمل والرأي والممكن والتقريبي وغير المؤكد ...بل تقوم على الجمع بين أطروحة من جهة ،وبين دليل أو مجموعة من الأدلة التي تسعى إلى تعليل هذه الأطروحة والبرهنة عليها من جهة ثانية."[31]

جاءت نظرية الحجاج عند تولمين معارضة لبعض أساليب المنطق الصوري

وجعلها قابلة للتطبيق في الخطاب اليومي مستخدما طرق الاستدلال للوصول إلى النتيجة وتقوم نظريته" على رسوم حجاجية ثلاثة، أولها المعطى(م) والنتيجة(ن) والضمان (ض) أو ما

يسمى قانون المرور، بالإضافة إلى عنصر الموجّه (Le qualificateur modal) ونصطلح عليه بـ (ج) وعنصر الاستثناء(س)ويمكن تمثيل شروط رفض القضية بالشكل الأتي:

التمثيل الحجاجي للكناية والتعريض

من الصور البلاغية الهامة التي تحرض العقل والذهن وتقف على المعنى الحقيقي للخطاب، هو أسلوب الكناية ، والتى تعني في السياق اللغوي هي ،"أن تتكلم بالشيء وتريد به غيره، يقال :كننت بكذا عن كذا،إذا تركت التصريح به:كنى يكني،وقيل :هي من كنيت الشيء أكنيته، إذا ستر بغيره ،وقيل :كنانة:بنونين ؛ لأنها من (الكنّ) وهو الستر، وتعريف الكناية مأخوذ من اشتقاقها، واشتقاقها من الستر، ويقال كنيت الشيء إذا سترته ،وإنما أجري هذا الاسم على النوع من الكلام ؛لأنه يستر معنى ،ويظهر غيره ، ولذلك سميت كناية"[32] .

أما الجرجاني يعرفها بقوله: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكرها باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورفده في الوجود فيومئ به إليه فيجعله دليلا عليه"[33].

فالكناية غاية وبيان لا يصل إليها إلا من لطف طبعه،وصفت قريحته،وهي طريق جميل للتعبير عن المعاني ،وما يجيش في الصدور ،فهي وسيلة من وسائل التاثير والاقناع.

أما التعريض في السياق اللغوي "ضد التصريح أي أن تخاطب واحدا وتريد غيره، وسمي بذلك لأنك تميل الكلام إلى جانب وأنت تشير إلى جانب آخر[34]؛أي أنّ معاني الخطاب تُفهم من عَرضه،**قال الله تعالى:**﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ**﴾[35]، والكناية والتعريض من الأساليب الإيحائية التي لا تدل على المعنى بصورة مباشرة، لأنهما تعملان على إعمال العقل والخيال، وإثارة المتلقي للوقوف على المعنى المقصود، إلا أن يشوبهما بعض الفروقات الطفيفة، فالتعريض أخفى من الكناية ،إذ المعنى الكنائي لفظي وضعي من جهة المجاز، بيد أنّ دلالة التعريض من جهة المفهوم المركب ،لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وأنّ المعنى يُفهم من عُرض اللفظ[36].

أما ابن أثير (606هـ) فيجعل فروق بينهما في قوله :"والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي ، وإنما سمي التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه ، وعرض كل شيء جانبه."[37] بالاضافة "أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، وأما التعريض فيأتي بالمركب ،ولا يأتي في المفرد البته. والدليل على ذلك لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز ، وإنما يُفهم، من جهة التلويح والاشارة"[38].

المثال الأول:

لقد امتدت دعوة سيدنا نوح إلى ألف سنة إلا خمسين عاما، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده دون ملل ولا كلل ، وهذا رغبة منه إلى إيصال صوت الحق والإيمان إلى قلوبهم وعقولهم، فتعامل معهم بأسلوب ليّن ينتابه قوة الدليل والحجة، فعمل عليه السلام على تهيئة نفوسهم وعقولهم ووجدانهم، من أجل حملهم على الإقناع بدعوته. قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[39]،إلا أنهم قابلوا دعوته باستهتار وإنكار وجحود وحقد، فكانت حجتهم في ذلك أنه مطعون في نبوته بشبهات ثلاث،أنه بشر مثلهم ،والثانية :أنه لم يتبعه إلا السفهاء وأراذل القوم،وأصحاب المهن الخسيسة والحقيرة، والثالثة أنه لا فضل عليهم في العقل ولا في قوة الجدل.

قال الله تعالى:﴿**فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿27﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾40**

جاء تعريضهم بقولهم : ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ؛ أي أننا أحق بالنبوة منك، وهذا يظهر مدى إنكارهم للحق رغم بيان الأدلة والحجج التي ألزمهم بها، وأرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشرا ؛أي "لا مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه ،لا أن ذلك محتمل ولكن لا نراه "41.

النتيجة : نحن أحق بالنبوة

لست ملكا (كناية)

ليس لك مزية عنا(كناية)

ما نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا(اللفظ المصرح)

كما استدلوا على نفي نبوته ،تحت طائل من الحجج الجزئية التي أوصلتهم إلى النتيجة؛ ليس لك مزية تخصك عنا ، سواء في العقل أم في الغنى وقوة الجدل . إنّ الذين آمنوا بدعوتك هم أراذل القوم وأصحاب الصنائع الخسيسة، أنّهم نظروا إلى دعوتك نظرة سطحية دون تأمل ولا عمق في التفكير ولو كانت نبوتك صادقة لآمن أشراف القوم، فأبطلوا حججه بطريقة "التغليط لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سببا لانتفاء فضلهم، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله ،وأعاد معه فعل القول لأنه أراد من القول معنى غير المراد منه فيما قيل، فالقول هنا كناية عن الاعتقاد لأن المرء إنما يقول ما يعتقد، وهي تعريضية بالمخاطبين؛ لأنه يضمرون ذلك ويقدرون" [42].

وتتشكل لنا حجج الإبطال من قبل قومه بالتمثيل الحجاجي المقابل.

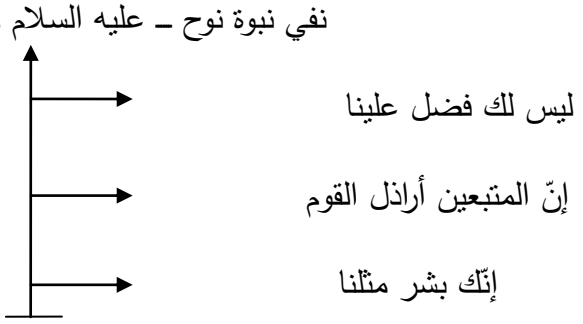

(م) استدلال ملأ قوم نوح بعدم الإيمان به ولا برسالته.

المثال الثاني

كان ردّ نوح عليه السلام بأنه بلّغ حجته بالبيّنة الواضحة وأنه لا يكرههم على الإيمان . قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾[43].

افتتحت الآية الكريمة بالنداء، لغرض التنبيه واجتلاب حضور القلب لدى المشركين، وذلك من أجل وعي خطاب سيدنا نوح، بعد ما أنكروا دعوته، فقد احتجوا في الآية السابقة وأجمعوا على إبطال حججه، وردوا عليه بالاستهزاء والسّخرية، واستدلوا بحجج واهية مغالطة أوصلتهم إلى نتيجة

مفادها عدم الإيمان بدعوته . فالإيمان هو حقيقة من الحقائق التي رسمها سيدنا نوح لقومه تستلزم استسلام النفس، وحضور البصيرة الذهنية للمخاطبين، وهذه الأشياء تفتقر كلها في سلوكاتهم وميزان أقوالهم، فإعراضهم كان خاليا من الدقة الفكرية في معالجة الموقف "[44].

ويعتبر القول الاستفهامي هو أقوى الأقوال؛ لأنه يجعل المخاطب في وضعية تسمح له بالاعتراف بكونه على ضلال، وهذا ما يستوجب من الخطاب أن يكون فاعلا بين المتحاورين كلما حوى على "أبلغ الحجج وأشدها إلزاما للخصم وأكثرها إفحاما له ما نطق بها هو نفسه وساهم في صنعها من خلال إجابته عن الاستفهام الموجه إليه[45]". أما قوله تعالى :﴿ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴾ لقد سلك سيدنا نوح مسلكا تعريضيا لإلزامهم الحجة بعد أن قلّبوا الحقائق وهو بمثابة إنذار للمشركين ،بأن يستبصروا أكثر لأهوائهم الباطلة، فجاء التعقيب بالفاء لأن ورود الحجة البيّنة المبنية على الرحمة من النبي نوح عليه السلام إلا خوفا عليهم من العقاب الإلهي، لكنهم واجهوه بإنكار دعوته و حججه، وكان رده أنه لا يلزمهم بالإكراه على قبول دعوته، والمعنى أنكم لو "زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم، أخبروني إن امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده، فخفيت عليكم تلك البيّنة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهي متحققة في نفسها أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك"[46].

والتمثيل التعريضي يلخص بالشكل الآتي

اللفظ المصرح به: **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**(بيان وبرهان النبوة)

اللفظ المضمر للتعريض: الإعراض والإنكار بسبب الجهل والغباوة لا ألزمكم

أفوض أمري إلى الله

ويمكن تمثيل استدلال سيدنا نوح على قومه بالنموذج الآتي:

(م)دعوة سيدنا نوح بالبيّنة والرحمة تستحق العقاب

(ض) (ن)النتيجة

نظرا لأنكم : عميتم عن البينة وأنكرتموها

المثال الثالث

قال تعالى:﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** ﴾[47].

لقد سلك سيدنا نوح عليه السلام أسلوب التعريض بسؤال عن حكمة الله ـ التي لا شك فيها ـ في غرق ابنه مستعملا أسلوب النداء تأكيدا منه أنّ الله تعالى وعده بنجاة أهله، لكن وقع عكس ما تمناه فكان مصيره مصير القوم الكافرين.

إنّ حساسية الموقف تجبر غريزة الأبوة التي اجتاحت قلب سيدنا نوح أن يستعمل هذا النوع من الأسلوب؛ لأن "عاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قدر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة لما تحمل أي أب أو أيّ أمّ متاعب تربية الأبناء"[48].

يكون التمثيل هذه الحجج وفق النموذج الآتي:

(م)دعاء نوح عليه السلام ←(ن)إنّ ابني يستحق النجاة

(نظرا إلى أن: (ض)

– ابني من أهلي، وأن وعدك الحق.

– وأنت أحكم الحاكمين.

استدلال سيدنا نوح عليه السلام على نجاة ابنه

لتأتي الإجابة بعدها على بطلان استدلال سيدنا نوح عليه السلام، قال الله تعالى:﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

جاء تحذير الله لنوح عليه السلام ونصحه أن يكون من الجاهلين، **فكنّى** الله نوحا في هذه الآية بالجهل؛ أي" إني أنبهك وأنصحك خشية من الجاهلين "[49]. كما يعلمه الله أنه لا يعلم الغيب "فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين "[50]. وعليه يكون ترتيب الحجج التي تقدمت في الآية كالآتي:

ـ ﴿ليس من أهلك﴾، ـ﴿عمل غير صالح﴾ ، "فكأن البنوة هنا عمل ،وليست ذاتا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابنا لنوح"[51].ثمّ نهاه عن

السؤال دون تفكير ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ ﴾ ؛ "فلا تلتمس مني ملتمسا أو التماسا لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى لا تقف على كنهه ،وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه ."[52]

– ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يريد أن يقول له: أنّ السؤال "كان قد صدر لا عن علم، والقول بغير علم ذنب لقوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾،كما بين الله تعالى أن ابنه ممن حق عليه العذاب، فالنتيجة المستخلصة من هذه الحجج أن الله تعالى حذره من السؤال الذي يكون مؤديا للجهل،"وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر لأن الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يعملون السوء بجهالة﴾[53] .

وقال أيضا حكاية عن موسى عليه السلام:﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾[54]، فالادعاء الذي استعمله سيدنا نوح عليه السلام في بيان الحجج التي يعتبرها دليلا تشفع لنجاة ابنه ؛لأن من شروط الحوارية أن تُلزم المُدعي تقديم حججه الظاهرة لما يدعيه أو يعتقده ، وإلا كانت حجته يشوبها الإبطال، ويكون تمثيل الشحنة الحجاجية في هذه الآية الكريمة وفق النموذج الآتي:

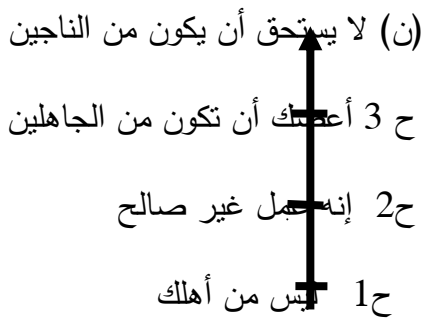

الاستدلال الإلهي بعدم أحقية نجاة ابن نوح

المثال الرابع

قال الله تعالى:﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴿27﴾**يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا**﴿28﴾ **لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا** ﴾[55]

عندما يكون عجز الخصم على رؤية الحق لوقوعه تحت مؤثرات الكبر والتعنت تأتي الكناية تفضي الى حالة المشركين لتبين موقف الخصم بعد قطع المحاججة والمناظرة ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ،﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فالآيتان توحيان على الدلالة على شدة الندم، وتكون في موضع اليد، والناس بفطرتهم تعارفوا أنّ عضّ الأيدي يدل على الحسرة والحزن."وهي من الكنايات التي يلازمها العرف من معان نفسية ،وأصل نشأتها عن تهييج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف"[56].

النتيجة : الندم الشّديد يوم الجزاء

ح3 اللفظ المكنى (الشرك بالله)

ح2 اللفظ المكنى (طاعة المشركين أخلّتهم في الشّرك)

ح1 وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ(اللفظ المصرح به)

لقد كنى الله بفلان الذي يحمل مقاصد متعددة، إما إخفاء اسمه خيفة عليه، أو خيفة من أهلهم أو للجهل به ،"وفيه إيماء إلى شأن الخلّة الثّقة بالخليل، وحمل مشورته على النصح ،فلا ينبغي أن يضع المرء خلّته إلى حيث يوقن بالسّلامة من إشارات السوء"[57] .

الخاتمة:

جاء الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم، ليكشف عن قضايا وأفكار مستعملا الحجج المقدمة، بغية تقريب المعنى وإظهاره في أجمل صورة، ويمكن استخلاص بعض النتائج من هذه الدراسة في النقاط الآتية:

- إن الوحي الإلهي جاء مُشبعا بأرقى وأروع صور البيان المتمثلة في أسلوبي الكناية والتعريض، بوصفهما آليات حجاجية التي يدخل فيهما الجانب الحسي، والعقلي؛ لأن هذا الأخير مصدر شرف الإنسان به يختلف عن غيره من الموجودات.
- الاستدلال الحجاجي في القرآن الكريم لم يَبْنِ حججه على المنطق الصوري الأرسطي، بل جاء مبنيا على تحريك وجدان المتلقي، وإعمال عقله من أجل الحصول على الإقناع والتأثير، مع مراعاة البيئة الزمانية والمكانية وحال المخاطبين .

الهوامـــش

[1] سورة الإسراء : الآية88.

[2] أبو الهلال العسكري :الصناعتين الكتابة والشعر،مطبعة محمود بك،الأستانة العلية ،ط1،1319هـ ،ص1 .

[3]:رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان،رؤية للنشر والتوزيع، ط 1، 2011 ، القاهرة ، ص9–10.

[4] ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :البيان والتبيين، مرجع سابق ،ج1،ص75.

[5] ـ م.ن،ص75.

[6]ـ م.ن،ص84.

[7] ـ الجرجاني ،أبو الحسن علي بن محمد: كتاب التعريفات، الدار التونسية لنشر، تونس، 1971، ص116.

[8]ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، 1992، ص95.

[9] ـ م.ن، ص80.

[10] ـ م.ن، ص55.

[11] ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص263.

[12]ـ م.ن، ص262 .

[13]ـ رضوان الرقي:الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر،الكويت،العدد2 المجلد40،أكتوبر.ديسمبر 2011، ص76 .

[14]ـ بدوي طبانة: البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2 ،1958،ص 202.

[15]ـ أبو يعقوب السكاكي:مفتاح العلوم، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط1، 2000 ،ص412.

[16] ـ م.ن،ص330.

[17]ـ عبد اللطيف عادل :بلاغة الإقناع والمناظرة، دار الأمان،الرباط،ط1، ،2013م، ص78.

[18] ـ محمد طروس :النظرية الحجاجية ، دار الثقافة، الدار البيضاء،ط1 ،2005،ص15.

[19] ـ عبد الجليل العشراوي ،آليات الحجاج القرآني، دراسة في نصوص الترغيب والترهيب،عالم الكتب الحديث ، الأردن ط1 ،2016، ص37.

20 محمد سالم الأمين الطلبة،الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1 ، 2008، ص107.

[21] ـ عمارة ناصر :الفلسفة والبلاغة،الدار العربية للعلوم، بيروت،لبنان،ط2009،1،ص17.

[44] ـ ينظر: محمد سالم :مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ، مجلة عالم الفكر، ص 57.

[23] ـ محمد مشبال : بلاغة الخطاب الديني،دار الأمان،الرباط ط1، 2015، ص185.

[24] ـ م. ن، ص107.

[25] ـ ينظر: محمد سالم ،الحجاج في البلاغة المعاصرة ،المرجع السابق ، ص108.

[26] ـ أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، المجلد 34، ص 12.

[27]ـ محمد علي القارصي ،ضمن أهم نظريات الحجاج ،ص394.

[28]ـ عبد الله صولة :الحجاج في القران الكريم، مرجع سابق، ص39.

[29] ـ الزماني كمال :حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه،عالم الكتب الحديث،الأردن، ط 1 ،2016،ص93.

[30] ـ ينظر :محمد طروس :النظرية الحجاجية، مرجع سابق ، ص58–59.

[31] ـ الزماني كمال :حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، مرجع سابق، ص93.

[32]ـ ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان، بيروت ،ط1، 1986،ص،242.

[33] ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، مرجع سابق ،ص66.

[34] ينظر: أبو منصور الثعالبي:الكناية والتعريض، تحقيق، عائشة حسين فريد، دار قباء، مصر، (د. ط) ، 1998، ص53.

[35] سورة البقرة :الآية235.

[36] ينظر: أبو منصور الثعالبي،الكناية والتعريض، مرجع سابق ،ص54.

[37]ـ ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،علق عيه ،بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار نهضة مصر، فجالة، القاهرة،ا لقسم الثالث، ص57.

[38]ـ م.ن،ص57.

[39] ـ سورة هود:الآية 25–26.

[40] سورة هود الآية :27.

[41] أبو السعود ص32.

[42] طاهر بن عاشور:التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر، ج12، ص58

[43] ـ سورة هود:الآية 28

[44] ـ محمد شريف الجرجاني: كتاب التعريفات،مرجع سابق،ص18.

[45] ـ م.ن،ص429

[46] ـ أبو السعود محمد بن محمد العمادى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دا ر إحياء التراث العربي، ج4، ص201.

[47] ـ سورة هود،الآية 45.

[48] ـ محمد متولي الشعراوي :تفسير الشعراوي ،قطاع الثقافة والكتب والمكتبات ،المجلد العاشر،ص 6481 .

[49] ـ محمد علي الصابوني:صفوة التفاسير،دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، مجلد،1981، ص17.

[50] ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 4،،2007 ، ص661.

[51] ـ محمد فخرالرازي فخر الدين :مفاتيح الغيب، دار الفكر،لبنان ،بيروت،ط 1، 1981،ج6، ص05.

[52] ـ أبو القاسم جار الله الزمخشري :الكشاف، دار المعرفة،بيروت ،لبنان،ط 3،2009، ص205

[53] سورة النساء :الآية 17.

[54] ـ محمد فخر الرازي فخر الدين :مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج 18 ، ص 05.

[55] سورة الفرقان الآية:27. 28. 29.

[56] طاهر بن عاشور: التحرير والتنوير،مرجع سابق، ص13 .

[57] طاهر بن عاشور: التحرير والتنوير،مرجع سابق ، ص22.